اللغة والهوية ..جدل الثابت و المتحول

مؤتمر الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب– ليبيا 2009

د. عيسى عودة برهومة

عضو رابطة الكتاب الأردنيين

مقدمة:

بات من الصعب اختزال المسائل الكونية الكبرى في معطى واحد، كما أن هذه الموضوعات تشتجر بحقول متعددة الأصول والمنجزات المعرفية المختلفة. وأياً كانت الثقافة تملك من قدرة على المقاومة والصمود أمام تيارات الانفتاح والاقتراض والتأثير فإنها لا بد واقعة في قوانين الأثر المتبادل بين نظيراتها من الثقافات الأخرى، وقد تتباين قدرة الثقافة في الحفاظ على ذاتها ومعالمها من الانصهار والامِّحاء، أو الاستعباد والإقصاء واستنبات آليات اشتغال في تربتها من ثقافة الآخر. وفي معترك هذا التلاحم بين المفاهيم والقضايا التي تشغل الإنسان والثقافات تبرز مسألة إشكالية ماثلة في تلازم اللغة والهوية في زمن أبرز معالمه التغير والصيرورة، إذ أضحت العولمة خطراً محدقاً بالثقافات والخصوصيات القومية، إذ تميل العولمة إلى صهر هذا التنوع الثقافي في بوتقة الثقافة الأحادية والقطبية المفردة التي تشبه أن تكون معادلاً موضوعياً للأمركة، بالتالي تكمن جدوى القول عن اللغة والهوية في راهن الهويات القاتلة وموت اللغات القومية أو ضمورها. وتتطلع هذه المقاربة إلى استجلاء مسألة اللغة العربية والهوية القومية بعيداً عن الطهرانية والتمجيد، وتأثيم كل وافد من الآخر. إذ إن الخوض في اللغة والهوية وفق ذلك المعطى لن يضيف جديداً، ولن يسهم في النظر إلى المسألة نظرة موضوعية جادة. لقد استقر في الوعي أن اللسان دعامة أساسية للثقافة، فلا تقوم الثقافة أياً كانت أشكالها وتعبيراتها، من دون وعاء لغوي يحتضنها ويتبناها، ويتيح السبل أمام أبنائها للتعبير والإبداع في مختلف مجالاتها. واللغة أيضاً مَعْلَمٌ أساسي من معالم انتمائنا إلى متحد لغوي اجتماعي. وَتَسَاوُقُ هذه الأقانيم يسهم بالضرورة في تعيين أفق الهوية الواحدة، وفي إنضاج ملامحها فردية كانت أم جماعية، وطنية، أو إثنية. والهوية تُسْتَنْهَضُ عادةً لدى شعور الجماعات والأفراد بتنافس حاد أو بخطر محدق أو داهم من لدن الهويات الأخرى، شقيقةً كانت أم صديقةً أم معادية. الأمر الذي يُلْزِمُهَا بضرورة التقارب والتضامن للتأكيد على الثوابت المشتركة والدفاع عنها. فاللغة هي القاعدة العامة لكل إنتاج ثقافي، وفي حال تدهور ثقافة ما أو تراجعها تتراجع قدرة اللغة على التعبير والانسجام وتتدهور عملية الإنتاج الثقافي والمعرفي، فتدخل معانٍ ومفاهيم ومصطلحات جديدة من لغة أخرى لكنها لا تحقق ذاتية اللغة ولا تعبر عنها. وهذا ما نلحظه اليوم حيث تفد المفردات والمفاهيم والمصطلحات الأجنبية بكثرة في اللغة وتفقدها مرونتها وسلاستها. إذ إنَّ اللغة قنطرة الإنسان إلى الحضارة، سجَّل بها تطوره وفكره وتجربته ومشاعره وعواطفه، وهي الأداة التي تحاور بها وتشارك وتبادل وأعطى وأخذ، فالبشر لا يتعلمون عن طريق الخبرة المباشرة والملاحظة والمحاكاة حسب، وإنما يتعلمون كذلك بوساطة الخبرة التي تتراكم في صورة علامات لغوية في الأغلب.

وتعريف الإنسان بأنه "حيوان ناطق" معناه في الحقيقة أن الإنسان كينونة لغوية. فاللغة هي "مسكن الوجود" كما يقول هيدجر، وهي مجال الإفصاح والإبانة عن أوجه الكائن والمكان الذي ينبني فيه الفكر. والقول أن اللغة مسكن الوجود ينبغي أن لا يفهم منه أن اللغة هي مجرد صورة عن الواقع أو أداة لنقل المعنى، أو أنها مجرد أسماء تقول مسميات. لغتنا هي أخص ما في كينونتنا،

فيها نتعرف إلى ذواتنا ونتمايز من غيرنا، وبها تتشكل ذاكرتنا، وإليها نهرب من أمكنتنا، ومن خلالها تتجلى طريقة تفكيرنا ونمط معقوليتنا، باختصار بواسطتها انبجس أهم وأخطر الأحداث التي صنعت حياتنا ووسمت تاريخنا [1].

[1] . ينظر علي حرب: التأويل والحقيقة. قراءات تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير، بيروت، ط2، 2007، ص ص 24-25